

ذي النون المصري

اتخذ من التقرب إلى الله منتهى رغبته، ومعقد أمله ومقصده، وغاية مراده ومنيته، وأقصى مرامه وبغيته، وأعلى ما تثب إليه روحه، ويسعى جسده. لم يكن زاهداً وعابداً عابراً في تاريخ التصوّف ومسيرته، بل كان من أصحاب الأذواق والمواجيد وأرباب المعرفة والرأى والفقّه .

تقلبت أحواله حتى اختلف عليه الناس. وتناثرت أخباره حتى تفرق بشأنه المؤرخون. واختلطت أقواله حتى ساح من تدبر سيرته في ظنون لا نهاية لها، عن مسلكه ومصيره، وعن معتقداته وأفكاره وتقديره. ولم يسلم ميلاده ومماته من هذا التناثر والتضارب والاختلاط، فقليل إنه مات عن ستين عاماً، كذلك قيل إنه مات عن تسعين عاماً.

المنشأ والمسيرة

قال الذهبي في "السير": "ذُو النُّونِ المِصْرِيُّ ثُوْبَانُ بنُ إِبْرَاهِيمَ الرَّاهِدِيُّ، شَيْخُ الدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ يُكْنَى: أبا الفَيْضِ. ويُقَالُ: أبا الفَيْضِ. وُلِدَ: فِي أواخرِ أَيَّامِ المِنْصُورِ، وَقِيلَ: إِنَّهُ مِنْ مَوَالِي قُرَيْشٍ، وَكَانَ أَبُوهُ نُويَّبًا.

يصفه المناوي في (الكواكب الدرية) بأنه [العارف الناطق بالحقائق، الفائق للطرائق، ذو العبارات الوثيقة، والإشارات الدقيقة، والصفات الكاملة، والنفس العاملة، والهمم الجليلة، والطريقة المرضية، والمحاسن الجزيلة المتبعة، والأفعال والأقوال التي لا تخشى منها تبعه، زهت به مصر وديارها، وأشرق بنوره ليلاً ونهارها].

وقال الدار قطنى عنه: {روى عن مالك أحاديث فيها نظر، وكان واعظاً}. ويصفه ابن يونس بأنه كان عالماً فصيحاً حكيماً. وقال السلمى في {محن الصوفية}: ذو النون أول من تكلم ببلدته في ترتيب الأحوال، ومقامات الأولياء، فأنكر عليه عبدالله بن عبدالحكم، وهجره علماء مصر، وشاع أنه أحدث علماً لم يتكلم فيه السلف، وهجره حتى رموه بالزندقة}.

فَقَالَ أَخُوهُ: إِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّكَ زَنْدِيقٌ، فَقَالَ:

وَمَا لِي سِوَى الإِطْرَاقِ وَالصَّمْتِ حِيَلَةٌ ... وَوَضَعِي كَفِّي تَحْتَ خَدِّي وَتَذْكَارِي

ويقال إن أمير مصر دعاه وسأله عن اعتقاده ، فتكلم ، فرضى أمره، وطلبه الخليفة المتوكل، فلما سمع كلامه، وَلِعَ به وأحبه حباً جماً. وكان يقول: إذا ذكر الصالحون ، فحى هلا بذي النون.

وتذكر المصادر التاريخية أن ذا النون زار بغداد مرة واحدة وقابل المتوكل ثم عاد إلى مصر حيث تُوفي يوم الاثنين الثاني من ذى القعدة سنة 246 هـ ، ومات المتوكل بعده بعام واحد .

ويروى عمرو بن السرح: {قلت لذي النون: كيف خلصت من المتوكل، وقد أمر بقتلك؟ قال: لما أوصلني الغلام، قلت في نفسي: يا من ليس في البحار قطرات، ولا في ديلج الرياح ديلجات، ولا في الأرض خبيئات، ولا في القلوب خطرات، إلا وهي عليك دليلات، ولك شاهدات، وبربوبيتك معترفات، وفي قدرتك متحيرات، فبالقدرة التي تُجِيرُ بها من في الأرضين والسموات إلا صليت على محمد وعلى آل محمد، وأخذت قلبه عنى، فقام المتوكل يخطو حتى اعتنقني، ثم قال: أتعبناك يا أبا الفيض } .

وقال عنه الذهبي بترجمته في كتاب سير أعلام النبلاء: {ذو النون المصري الزاهد شيخ الديار المصرية... هو من روى عن مالك والليث وابن لهيعة وفضيل بن عياض وسلم الخواص وسفيان بن عيينة وطائفة } .

وكانت لذي النون مهارة في علم الكيمياء وصناعتها، يقال إنه تعلمها من الكيميائي العربي الشهير جابر بن حيان، وبرع في فنون التنجيم وفك الطلاسم. وكان من المنشغلين بجل رموز ورق البردى في إخميم، التي كانت حافلة بالرسوم القبطية القديمة. وقد تمكن بالفعل من حل كثير من رموزها ونقوشها، فصارت معلومة للناس بعد جهل، وواضحة بعد غموض.

طريق الهداية

وثمة من يؤكد أن توبة الرجل جاءت خلال أدائه فريضة الحج. لكن ثمة من يؤكد أيضاً أن تلك التوبة كانت على يد شقران المغربي العابد، وهو شخصية قوية أثرت تأثيراً كبيراً في تلميذه .

وكان ذو النون يقول دوماً: {إن لله عبادةً خرجوا إليه بإخلاصهم، وشمروا إليه بنظافة أسرارهم، فأقاموا على صفاء المعاملة، وبادروا إلى استماع كلامه بحضور أفهامهم، فعند ذلك نظر إليهم بعين الملاحظة فأجزل لهم المواهب، وحفت لهم منه العطايا، فشموا روائح القرب من قربه، وهبت عليهم رياح اللقاء من تحت عرشه، فتطايرت أرواح قلوبهم إلى ذلك الروح العظيم، ثم نادى لا يراحم}.

وقال: ألا حل خدموم؟ ألا صديق يدوم؟ ألا حليف وداد؟ ألا صحيح اعتقاد؟

أين من استراح قلبه بحب الله؟ أين من ظهر على جوارحه نور خدمة الله؟

أين من عرف الطريق؟ أين من نظر بالتحقيق؟ أين من سقى فباح؟ أين من بكى وناح؟

أولئك تحف بهم الملائكة بالليل والنهار، وتسلم عليهم الحيتان من البحار .

رؤيته الصوفيّة

كان ذو النون يؤمن بأن {القرآن كلام الله غير مخلوق} ويرى أن الله تعالى لا يمكن أن يتصوره أحد مهما أطلق لخياله العنان، إذ يقول: {مهما تصور في وهمك، فالله بخلاف ذلك}. وكان ذو النون يرى أن الاستغفار يجمع معاني عدة هي:

الندم على ما مضى، والعزم على الترك، وأداء ما ضيعت من فرض، ورد المظالم في الأموال والأعراض والمصالحة عليها، وإذابة كل لحم ودم نبت على الحرام، وإذابة ألم الطاعة كما وجدت حلاوة المعصية.

ومن يطالع أقوال ذي النون في المعرفة اللدنية والمحبة الإلهية والفناء يدرك تماماً أن الرجل ترك علامة قوية في تاريخ التصوف برمته، وهام ذو النون عشقاً في ربه، وعبر عن هذا شعراً في نظمه:

أطلبوا لأنفسكم مثلما وجدت أنا

قد وجدت لي سكناً ليس في هواه عنا

إن بعدت قريني أو قربت منه دنا

وقد سئل ذو النون ذات يوم: بم عرفت ربك؟ فقال: {عرفت ربي بربي، ولولا ربي ما عرفت ربي}. وكانت المعرفة لديه هي يقين يناله الإنسان بثلاثة أمور ترتبط جميعها بالذات الإلهية، أولها: النظر في الأمور كيف دبرها، وفي المقادير كيف قدرها، وفي الخلائق كيف خلقها .

ومفتاح العبادة لدى ذي النون هو الفكرة، وآية الوصول مخالفة النفس والهوى، ومخالفتها في ترك الأمانى، وإن كل من داوم على التفكير يرى علم الروح في قلبه. ولذا كان ينصح دائماً كل من يسعى إليه بقوله: {لا تصحب مع الله تعالى إلا بالموافقة ولا مع الخلق إلا بالمناصحة، ولا مع النفس إلا بالمخالفة، ولا مع الشيطان إلا بالعداوة} .

وكان ذو النون متعمقاً في إخلاصه، متحرياً للصدق في عبادته، لا يظهر خيراً ولا يضمراً شراً، متكنماً على أحواله وأعماله. وهنا يقول ثلاثاً من علامات الإخلاص: استواء الذم والمدح من العامة، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال، وترك اقتضاء ثواب العمل في الآخرة .

ولم يكن الإخلاص لدى ذي النون منفصلاً عن الخوف والمراقبة واليقين والتوكل والحياء والصدق والذكر، وكلها من مقامات المتصوفة وأحوالهم. فهذا هو يقول عن الأول: {الناس على الطريق، ما لم يزل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف، ضلوا عن الطريق}. وسئل ذات مرة: متى يتيسر على العبد سبيل الخوف؟ فقال: {إذا أنزل نفسه منزلة السقيم يحتسى من كل شيء مخافة طول السقام}. أما المراقبة فإن علامتها ودليل تحققها لديه هما {إيثار ما آثر الله تعالى، وتعظيم ما عظم الله تعالى، وتصغير ما صغر}

وفي ما يخص اليقين يرى ذو النون أن ثمة {ثلاثة من أعلام اليقين: قلة مخالطة الناس في العشرة، وترك المدح في العطية، والتنزه عن ذمهم عند المنع. وثلاثة من أعلام يقين اليقين: النظر إلى الله تعالى في كل شيء، والرجوع إليه في كل أمر، والاستعانة به في كل حال}. ويرى ذو النون أن الحياء هو {وجود الهيبة

في القلب مع وحشة ما سبق منك إلى ربك تعالى}. ويؤمن بأن الصدق هو {سيف الله، ما وضع على شيء إلا قطعه}. وأخيراً كان يرى أن {من ذكر الله ذكراً على الحقيقة نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله تعالى عليه كل شيء وكان له عوضاً عن كل شيء}.

ويروى حيان بن أحمد السهمي أن ذا النون مات في الجيزة، وعبروا بجثمانه إلى مصر المحروسة في مركب خوفاً من زحمة الناس على الجسر، لليلتين خلتا من ذى القعدة سنة ست وأربعين ومائتين وقال آخر: مات سنة ثمان وأربعين، وهذا اختلاف بسيط قياساً إلى الخلاف والجدل حول أفكار ذى النون ومواجهته وارتباطاته وتاريخه المتفرق على كتب قليلة.



المصدر: من موقع المصري اليوم - عمار علي حسن "بتصرف"